

الفصل الثاني

**من أوجه الإعجاز
فيما ورد ذكره عن
الحضارات المعمارية السابقة**

قص علينا القرآن الكريم من خلال بعض سوره وآياته قصصا لحضارات جاءت قبل بعثة النبي الخاتم ﷺ، وقد أوضح العلماء والمفسرون قصة الصراع بين الحق، متمثلا في رسل وأنبياء الله ومن اتبعوهم بإحسان وبين الباطل متمثلا في القرى والأقوام الظالمة التي كفرت بأنعم الله وصدت عن سبيل الحق، في محاولة منهم لإظهار الدروس والعبر التي حواها القصص القرآني مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١)، ولم يكتف القرآن بذلك بل أمر المسلمين بالسير في الأرض والنظر في آثار الأمم السابقة وكيف كان عاقبة المكذبين بالرغم مما وصلت إليه هذه الأمم من تقدم حضارى وعمرانى لم يغن عنها من الله شيئا، ونلمح هذا الأمر والمعانى السابقة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لَآلِهَةٍ لِّيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢).

لقد حمل القصص القرآني في طياته العديد من الضوابط والمفاهيم الخاصة بعمارة وعمران الأرض، والتي تعتبر بمثابة القواعد والأسس التي يسترشد بها المسلمون في كل زمان ومكان من أجل عمارة الأرض العمارة الصالحة الفاضلة، كما

(١) سورة يوسف: من الآية (١١١).

(٢) سورة الروم: الآية (٩).

أرادها الله سبحانه وتعالى وأكد عليها رسله وأنبيائه في دعوتهم على مر العصور، فهاهو القرآن الكريم يلفت النظر إلى ما حدث لثلاث حضارات معمارية كبرى حادت عن طريق الحق وطغت في البلاد وبطرت معيشتها حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٣﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٤﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿٦﴾ فَأَكْرَمُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿٩﴾ ^(١) .

وفيما يلي سنحاول توضيح بعض أوجه الإعجاز القرآني فيما ورد ذكره عن الحضارات المعمارية الثلاث التي ذكرت في سورة الفجر.

أولاً: الإعجاز فيما ورد ذكره عن حضارة عاد المعمارية:

بالنسبة لقوم "عاد" فقد كانوا يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل، وكانت باليمن بين عمان وحضرموت ^(٢) ^(٤)، وكانت لهم حضارة معمارية عظيمة وصفتها الآيات القرآنية بأنها لم يخلق مثلها في البلاد فاغتروا بنعم الله عليهم واستكبروا في الأرض، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِبَابِ رَبَّنَا مُحَدِّثِينَ ﴿٣﴾، ومن نماذج الممارسات العمرانية الفاسدة أنهم أقاموا مباني العبث والفجور وقد أخبر بذلك القرآن الكريم على لسان نبيهم سيدنا "هود" مستنكراً عليهم ذلك في الآيات الكريمة التالية: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ^(٤)، فالله سبحانه وتعالى ينعى على "عاد" قوم "هود" أنهم

(١) سورة الفجر: الآيات من ٦-١٤.

(٢) الحافظ ابن كثير (١٩٨٢). قصص الأنبياء، دار الحديث، القاهرة، ص ٨٩.

(٣) سورة فصلت: الآية ١٥.

(٤) سورة الشعراء: الآيات ١٢٨-١٣١.

كانوا يبنون بكل ريع، أى مكان مرتفع، آية أى بناء ظاهرا كالعلم لقصد العبث بمن يمر في الطريق من الناس، وفي ذلك استخدام للأبنية في غير ما شرع الله ببناءها، كما يفهم من الآية أيضا أنهم كانوا يبنون في الأماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخرا فنهوا عنه ونسبوا إلى العبث.

وبذلك يمكن القول بأن استنكار الآيات السابقة للسلوك الاعمارى لقوم عاد يتركز على قضيتين أساسيتين متلازمتين نتجتا عن اضطراب فى التصور العقائدى^(١):

- القضية الأولى: عبثية الغاية من البناء والاعمار، فعاد قد بنت المباني العظيمة بقصد المباهاة وإظهار القوة ولم تبني للحاجة ولا لغرض سليم، ولهذا استنكر عليهم نبههم عليه السلام ذلك، لأنه تضييع للزمان واتعاب للأبدان واشتغال بما لا يجدى في الدنيا ولا في الآخرة.

- القضية الثانية: غياب التصور الصحيح الذى تستند عليه الممارسات الاعمارية، فالبناء والاعمار إنما هو لسد خلة الباني وحاجته فترة بقاءه وبنيه في هذه الدنيا، لذا فالمبالغة الشديدة في البناء حتى يظن أن الباني مخلد في دنياء يتضمن بذل للأموال واتعاب للأبدان وإشغال للوقت عن المهمة الأعظم والدور الأكبر من تعبيد الخلق لبارئهم والإعداد ليوم لقائه.

من أوجه الإعجاز العلمى فى حضارة عاد المعمارية:

١ - العلامات المميزة كأحد عناصر التصميم البصرى:

من الناحية العلمية فإن الآية (١٢٨) من سورة الشعراء قد احتوت على أحد المفاهيم والعناصر التى يتم استخدامها في عملية التصميم الحضري Urban Design

(١) أنظر كلا من: * عبد الجليل أبو ضمرة (٢٠٠٣). فقه الاعمار وضوابطه في الفقه الاسلامى. مؤتمر الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة اليرموك - اربد، الأردن.

* أحمد محمد السعد (٢٠٠٣). ضوابط بناء المساكن في الفقه الاسلامى. مؤتمر الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة اليرموك - اربد، الأردن.

حديثا، وهو ما يطلق عليه مسمى "العلامات المميزة" Land marks ، وهى عبارة عن مباني أو عناصر معمارية تكون ظاهرة للناس كمعالم بصرية داخل القرى أو المدن يتم الاستدلال بها على معالم الطرق والمدن.

ولكى يمكن إطلاق لفظ "علامة مميزة" على مبنى أو عنصر معمارى فانه يجب أن يتصف ببعض المظاهر والصفات التى تؤهله لذلك، تنحصر أساسا فى شيئين هامين: أولهما اختيار موقع هذا المبنى أو العنصر المعمارى فى مكان يؤهله للقيام بدور العلامة المميزة، وثانيهما أن يكون شكله الخارجى ملفتا للنظر ومميزا، وبذلك يحصل المبنى على صفات بصرية معينة وذات رسائل محددة تفيد فى التعرف عليه بصريا وتميزه عما حوله من مباني أخرى.

وبالرجوع لما ورد بالآية الكريمة فإننا نجد أنها أشارات إلى المعيارين السابقين الواجب توافرها فى العلامات المميزة، وأول هذه المعايير أن عاد كانوا يبنون بكل مكان مرتفع (ريع) أى أنهم اختاروا المواقع الهامة والمرئية بالنسبة لجميع الناس أو غالبيتهم، وثانيها أنهم كانوا يبنون بهذه المواقع الهامة مباني غاية فى الجمال والإتقان لدرجة أنها وصفت بأنها "آية" أى رائعة الشكل، وبذلك أصبحت هذه المباني "علامات مميزة" يمكن الاسترشاد بها أثناء السير أو المرور عليها، ولكن عيبها الوحيد أنها لم تبين لتأدية وظيفة نافعة بل كانت تبني للعبث والفجور وقطع الطريق على الناس.

ولكى نقرب فكرة العلامات المميزة كما كانت فى حضارة عاد فإننا نستشهد هنا بمثال معروف من مدينة القاهرة، ونقصد تحديدا "مسجد محمد على باشا" الكائن فى قلعة صلاح الدين الأيوبي، فلقد تم اختيار موقع هذا المسجد بهضبة عالية نسبيا عما يحيط بها من مدينة القاهرة القديمة، شكل (٤)، ثم تم بناء مسجد محمد على الطراز العثمانى والذى يتميز بوجود قبة كبيرة تغطى قاعة الصلاة، ويحيط بالمسجد أربعة مآذن عالية مما يعطى للمسجد من الخارج شكلا معماريا جميلا ومميزا جدا فى نفس الوقت، لذلك فقد أصبح كعلامة مميزة ترى من العديد من مواقع القاهرة

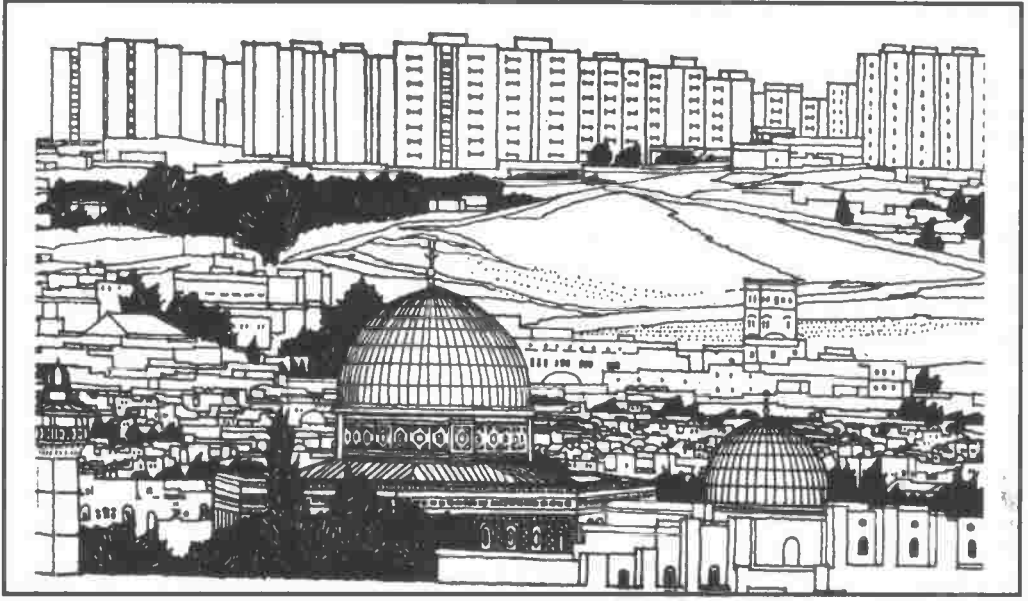
القديمة، أو امتداداتها خاصة قبل انتشار المباني العالية الحديثة، وقد كان نتيجة هذا التميز لموقع مسجد محمد على وشكله الخارجى أن محافظة القاهرة قد اتخذته رمزا وشعارا للمحافظة ككل، وهو ما يؤكد أهميته كواحد من أهم العلامات البصرية المميزة في مدينة القاهرة.



شكل (٤) : مسجد محمد على بقلعة الجبل بمدينة القاهرة القديمة، يعتبر من أهم العلامات البصرية المميزة بمدينة القاهرة^(١).

ومن الأمثلة الأخرى التى يمكن أن نستشهد بها فى هذا المجال هو مسجد قبة الصخرة فى ساحة المسجد الأقصى، شكل (٥)، فكما هو معروف فان المسجد الأقصى قد تم بناؤه على هضبة مرتفعة نسبيا عن باقى مدينة القدس، كما تم بناء قبة الصخرة على منطقة أكثر ارتفاعا (مصطبة) يتم الوصول إليها بدرج، هذا من ناحية اختيار الموقع المميز المرتفع، كما روعى فى تصميم قبة الصخرة الشكل الخارجى الجميل والمميز بقبته المكسوة برفائق معدنية ذات لون ذهبى أخاذ، فأصبحت بذلك قبة الصخرة أهم علامة بصرية تميز مدينة القدس الشريف.

(1) John D. Hoag (1975). Islamic Architecture. Harry N. Abrams, Inc., Publishers, New York, pp. 152



شكل (٥): مبنى قبة الصخرة أحد العلامات البصرية المميزة بمدينة القدس الشريف^(١).

إن الأمثلة التي تدل على وجود العلامات المميزة منتشرة في مختلف مدن العالم القديمة والحديثة على حد سواء، وهي لا يشترط أن تكون مباني فقط بل يمكن أن تكون أبراج على جبال مرتفعة، أو تماثيل في مداخل المدن ومن أشهرها تمثال الحرية في نيويورك وغيرها من الأمثلة العديدة التي يضيق المجال عن ذكرها، وما يهمنا التدليل عليه هنا هو السبق القرآني في التنبيه على وجود "العلامات المميزة" كأحد عناصر التصميم البصري داخل المدن والخواضر المعمارية وذكر أهم المعايير التصميمية لها، وهو ما يتم تدريسه الآن في مناهج تخطيط المدن في جميع كليات العمارة وتخطيط المدن في جميع أنحاء العالم.

(١) يحيى وزيرى (٢٠٠٥). التطور العمرانى والتراث المعمارى لمدينة القدس الشريف. الدار الثقافية للنشر، القاهرة.

من دلائل إعجاز القرآن الكريم في مجال تاريخ العمارة والآثار هو اكتشاف مكان مدينة "إرم"، حيث ذكر العالم المصرى الدكتور زغلول النجار^(١) أنه في سنة ١٩٨٤م قد تم تزويد أحد مكوكات الفضاء بجهاز رادار له القدرة على اختراق التربة الجافة إلى عمق عدة أمتار، يعرف باسم جهاز رادار اختراق سطح الأرض، فكشف عن العديد من المجارى المائية الجافة مدفونة تحت رمال الحزام الصحراوى الممتد من موريتانيا غربا إلى أواسط آسيا شرقا.

وبدراسة الصور المنشورة اتضح وجود آثار مدقات للطرق القديمة المؤدية إلى عدد من أبنية مدفونة تحت الرمال السافية التى تملأ حوض الربع الخالى، وعدد من أودية الأنهار القديمة والبحيرات الجافة التى يزيد قطر بعضها عن عدة كيلو أمتار.

وقد احتار الدارسون في معرفة حقيقة تلك الآثار، فلجأوا إلى الكتابات القديمة الموجودة في إحدى المكتبات المتخصصة في ولاية كاليفورنيا وتعرف باسم مكتبة هنتنجتون، وإلى عدد من المتخصصين في تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم وفي مقدمتهم الأمريكى "جوريس زارينز"، والبريطانى "رانولف فينيس"، وبعد دراسة مستفيضة أجمعوا على أنها هى آثار عاصمة ملك عاد التى ذكر القرآن الكريم أن اسمها "إرم" كما جاء في سورة الفجر، والتى قد عمرها بالفترة من ٣٠٠٠ ق.م. إلى أن نزل بها عقاب ربها فطمرتها عاصفة رملية غير عادية، وعلى الفور قام "معهد كاليفورنيا للتقنية" بإعداد تقرير مطول يضم نتائج الدراسة، ويدعو رجال الأعمال والحكومات العربية إلى التبرع بسخاء للكشف عن تلك الآثار التى تملأ فراغا في تاريخ البشرية، وكان عنوان التقرير هو: البعثة عبر الجزيرة، وتحت العنوان مباشرة جاءت الآيتان الكريمتان رقم ٧، ٨ من سورة الفجر.

(١) أنظر كلا من: * زغلول النجار (١٩٩٢). اكتشاف مدينة "إرم ذات العماد التى تحدث عنها القرآن منذ ١٤ قرنا. جريدة الأهرام (١٠/٤/١٩٩٢)، القاهرة، ص ١٤.

* زغلول النجار (٢٠٠٢). من أسرار القرآن. جريدة الأهرام (٧/١٠/٢٠٠٢)، القاهرة، ص ١٢.

وفي يناير سنة ١٩٩١م بدأت عمليات الكشف عن الآثار في المنطقة التي حددتها الصور الفضائية واسمها الحالي "شيصار"، شكل (٦)، واستمر إلى مطلع ١٩٩٨م وأعلن خلال ذلك عن اكتشاف قلعة ثمانية الأضلاع سمكة الجدران بأبراج في زواياها مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاعها إلى ٩ أمتار وقطرها إلى ٣ أمتار ربما تكون هي التي وصفها القرآن الكريم.



شكل (٦)؛ جانب من أسوار وأثار مدينة 'ارم' المكتشفة في نهاية القرن العشرين^(١).

(١) زغلول النجار (من أسرار القرآن): المرجع السابق، ص ١٢.

إن هذه الكشف الأثرية الحديثة التى تثبت ما جاء فى القرآن الكريم عن قوم عاد ومدينتهم "ارم" وما أصابها من دمار بعاصفة رملية غير عادية يعتبر احدى صور الإعجاز التاريخى - فى مجال تاريخ الحضارات السابقة وفى مجال تاريخ العمارة أيضا- فى كتاب الله تشهد له بأنه لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثانيا - الإعجاز فيما ورد ذكره عن حضارة ثمود:

كانت قبيلة "ثمود" يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك، وقد مر به رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، وكانوا بعد قوم عاد وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك^(١)، وكانت لهم حضارة مادية عظيمة تتجلى فى بناء القصور الفخمة فى السهول ونحت البيوت فى الجبال، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَنَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٢)، لقد تميزت حضارتهم بالرفاهية العمرانية حيث اتخذ القصور فى السهول حيث طبيعة البيئة والمناخ تختلف عن اتخاذ البيوت المنحوتة فى الجبال، فهم أقاموا أماكن صيفية وأخرى شتوية لرفاهيتهم^(٣).

ورد فى تفسير الآية الكريمة السابقة ما يلى^(٤): "واذكروا نعمة الله عليكم، إذ جعلكم تخلفون فى الأرض من قبلكم، من بعد قبيلة عاد، ومكن لكم فى الأرض الطيبة تنزلونها فتنون فى سهولها البيوت العظيمة، وتنتحون من جبالها بيوتا أخرى، فاذكروا نعم الله عليكم ولا تسعوا فى الأرض بالإفساد".

ويقول الإمام القرطبى فى تفسيره^(٥): "اتخذوا البيوت فى الجبال لطول أعمارهم،

(١) انظر: ابن كثير (قصص الأنبياء): مرجع سابق، ص ١٠٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٧٤.

(٣) يحيى وزيرى (التعمير فى القرآن والسنة): مرجع سابق، ص ١٤.

(٤) نخبة من العلماء (التفسير الميسر): مرجع سابق، ص ١٦٠.

(٥) أنظر تفسير الآية (٧٤) من سورة الأعراف فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى.

فان الأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم"، ويقول الإمام ابن كثير^(١): "وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة، فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم، فنحتوا لهم بيوتا في الجبال".

ولم تقتصر الحضارة الثمودية على الرفاهية العمرانية فقط بل حولوا السهول إلى جنات وارفة الظلال متنوعة الثمار، فجمعوا بذلك بين فخامة العمران وإنشاء الحدائق وغرس الجنان، وفي هذه المعانى يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَتَتْرُكُونَ فِي مَا هُنَّاءَ آمِينَ ﴿٣٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٣٧﴾ وَزُرُوعٍ وَخَلِّ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٣٨﴾ وَتَنَحُّتُونَ مِنْ آلِجِبَالٍ بُيُوتًا قَرِيرِينَ ﴿٣٩﴾﴾، فالله سبحانه وتعالى أنعم عليهم وجعلهم في أمن من المحذورات وأنبأ لهم من الجنات وفجر لهم العيون الجاريات وأخرج لهم من الزروع والثمرات، كل ذلك إلى جانب البيوت القوية الآمنة سواء كانت منحوتة في الجبال أو مقامة في السهول.

من دراسة الآيات التي تقص علينا مدى الرقى والرفاهية الحضارية التي وصلت إليها الحضارة الثمودية، فانه يمكن وضع تصور لما كانت عليه حضارة ثمود والتي كانت تقع في منطقة الحجر بين الحجاز وتبوك.

فقد كانت حضارة دولة ثمود القوية مدينة تقع في منطقة آمنة سهلة تحيط بها سلسلة من الجبال، وكانت المنطقة تزخر بعيون المياه العذبة تحف بها الحدائق وزراعات النخيل بالإضافة إلى الحقول التي كانت تزرع محاصيل شتى، وفي هذا يقول تبارك وتعالى على لسان سيدنا النبي صالح موجهها كلامه إلى قومه: ﴿أَتَتْرُكُونَ فِي مَا هُنَّاءَ آمِينَ ﴿٣٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٣٧﴾ وَزُرُوعٍ وَخَلِّ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾، وكانوا يبنون قصورا من الأحجار والصخور في الوديان وسط جناتهم وبساتينهم، كما كانوا ينحتون في الجبال بيوتا يعيشون فيها مطمئنين من أن تقع عليهم، ويمكن أن يستدل من الآيات الكريمة ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنَحُّتُونَ آلِجِبَالٍ

(١) ابن كثير (قصص الأنبياء): مرجع سابق.

(٢) سورة الشعراء: الآيات ١٤٦-١٤٩.

بَيُوتًا^(١)، و﴿وَتَمْوَدُّ أَلْدِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾^(٢)، على ما وصل إليه الثموديون من براعة وتقدم في وسائل البناء والتشييد حيث تنوعت الوسائل بين النحت في الجبال، وقص الأحجار ونقلها لاستعمالها في أعمال البناء المختلفة^(٣).

فهم كانوا ينحتون بيوتاً في الجبال أى يخرقونها في الجبال آمنين من الموت وقيل من العذاب ركونا منهم على قوتها ووثاقتها، وبالرغم من ذلك أخذتهم الصيحة مصبحين أى داخلين في وقت الصبح^(٤)، كما نقلوا ناتج الصخور التى نحتوها وبروها من الجبال إلى السهول والوديان وقطعوا هذه الصخور ثم استخدموها في إقامة القصور الفخمة الفارهة في وسط الجئات والبساتين والطبيعة الخلابة.

هذه هى الصورة الحضارية الرائعة التى أراد القرآن الكريم أن يوصلها إلى أذهاننا، وتوجد الآن بقايا لبعض القبور المنحوتة في الجبال الرملية بمدائن صالح التى تقع على مسافة ١٥ كيلو متراً شمال منطقة "العلا" بالسعودية، شكل (٧)، كما توجد بالقرب من منطقة المقابر آثار مستوطنات قديمة ربما كانت مساكن لسكان مدائن صالح في عصورها المختلفة^(٥).

* من أوجه الإعجاز العلمى فيما ورد عن الحضارة الثمودية :

بعد أن تعرفنا على جوانب التقدم الحضارى والعمرانى في الحضارة الثمودية، يبرز هنا تساؤل عن جانب الإعجاز العلمى في هذه الحضارة المعمارية العظيمة؟، ولكى نجيب على هذا التساؤل يجب أولاً أن نوضح الفرق بين الظروف المناخية والتى يمكن أن تؤثر على الإنسان حين يسكن في المناطق الجبلية أو المناطق السهلية والأودية المجاورة لها.

(١) الأعراف: من الآية ٧٤.

(٢) الفجر: الآية ٩.

(٣) حازم إبراهيم وعمر عبد الله قاضى (١٩٨١). تخطيط المدن في المملكة العربية السعودية. شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة، الرياض، ص ٢٤، ٢٥.

(٤) أنظر تفسير الآية (٨٣) من سورة الحجر في فتح القدير للإمام الشوكانى.

(٥) مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية (١٩٧٥). إدارة الآثار والمتاحف، وزارة المعارف، السعودية، ص ٩٧.



بعض واجهات المقابر المنحوتة في الجبال.



بعض الأعمدة المنحوتة.

شكل (٧) : بعض بقايا آثار الحضارة التمودية بمنطقة العلا بالسعودية^(١).

(١) حازم إبراهيم وعمر عبد الله قاضي: المرجع السابق، ص ٢٦.

يتكون فى بعض الأماكن دورات هوائية محلية نتيجة اختلاف طبيعة سطح الأرض فى هذا المكان ومن أهم الدورات ما يعرف بنسيم البر والبحر، ونسيم الجبل والوادي، وما يتصل بموضوعنا هنا هو النوع الثانى من هذه الرياح المحلية.

ففى المناطق الجبلية تختلف درجة حرارة الهواء الملامس لسفوح الجبال والتلال عن درجة حرارة الهواء البعيد عنه على نفس الارتفاع، وينتج عن ذلك دوامات هوائية محلية تعكس اتجاهها ما بين الليل والنهار مسببة ما يعرف باسم الرياح السفحية الصاعدة Anabatic (نسيم الوادي)، والرياح السفحية الهابطة Katabatic (نسيم الجبل)، وفيما يلى سنوضح طبيعة كل نوع من هذه الرياح المحلية^(١):

أ - نسيم الوادي:

أثناء النهار تكون درجة حرارة الهواء الملامس لسفح الجبل أو التل أكبر من درجة حرارة الهواء البعيد عنه فتقل كثافته ويصعد إلى أعلى، ويتكون نتيجة ذلك دورة هوائية محلية وتسمى الرياح الصاعدة على سفوح الجبال باسم "الرياح السفحية الصاعدة"، شكل (٨-أ).

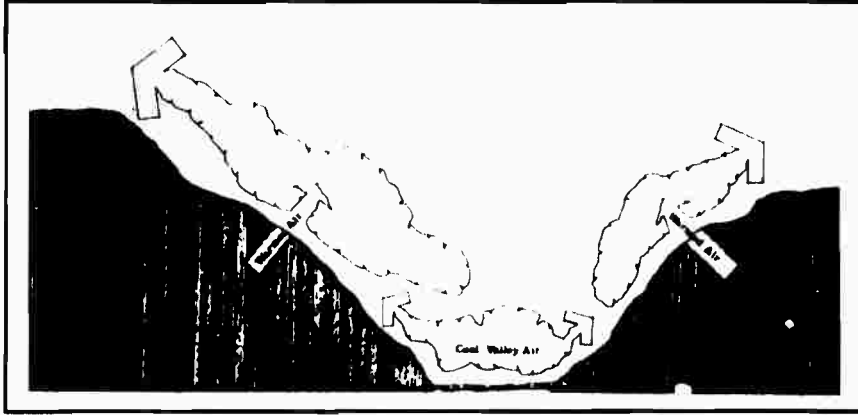
ب - نسيم الجبل:

أثناء الليل يبرد الهواء عند سفح الجبل أو التل بدرجة أكبر مما يبرد به الهواء البعيد عنه فتزداد كثافته ويهبط إلى الوادي، ويتكون نتيجة لذلك دورة هوائية محلية ويسمى الهواء الهابط على سفح الجبل باسم "الرياح السفحية الهابطة"، شكل (٨-ب).

كما سبق يمكن أن نتفهم لماذا اتخذ واختار الثموديون قصورا فى المناطق السهلية والأودية وبيوتا فى الجبال، وذلك لاختلاف طبيعة المناخ فى كل منهما على مدى الليل والنهار وبالتالي صيفا وشتاء، وذلك لأن نسيم الجبل (الرياح السفحية

(١) عبد القادر محمد العاملى و خليل عبد الفتاح خليل (١٩٦٥). الأرصاد الجوية للطيران. وزارة الطيران المدنى، القاهرة، ص ١٧٦.

الهابطة) الهابط ليلا على الوادى يكون مستحبا في ليالى الصيف فيمكن في هذه الحالة المبيت في هذه القصور والمباني الفخمة، أما في الشتاء فان نسيم الجبل لا يكون مستحبا في ظل برودة الجو ليلا فيلجأ الثموديون إلى البيوت المنحوتة في الجبال حيث يكون الجو أكثر دفئا داخل هذه البيوت قياسا ببيوت السهول.



شكل (٨ - أ): نسيم الوادى نهارا، وهو ما يسمى أيضا بالرياح السفحية الصاعدة^(١).



شكل (٨ - ب): نسيم الجبل ليلا، وهو ما يسمى أيضا بالرياح الجبلية الهابطة^(٢).

وهذا يعنى أن الآيات الكريمة أرادت أن توضح لنا أن اتخاذ القصور في السهول والبيوت في الجبال لايعبر فقط عن الرفاهية العمرانية التى كانت تميز

(١)، (٢) محمد محمد البراملجى (١٩٨٧). الطبيعة والمدن الصناعية. المجلة المعمارية، عدد (٨،٧)، جمعية المهندسين المعماريين المصرية، القاهرة، ص ٨٢.

الحضارة الثمودية، وإنما كانت تعنى أنهم استطاعوا أن يتغلبوا على الظروف المناخية الصحراوية الصعبة في فصلى الصيف والشتاء، فأقاموا بيوتا تصلح للإقامة صيفا وأخرى تصلح للإقامة شتاء، وهو ما يتفق مع أسس علم التصميم البيئى ومراعاة الظروف المناخية المحلية لكل بيئة ومنطقة، وهو سبق قرأتى في هذا المجال يعطى لفئة اعجازية تدخل ضمن إعجاز القرآن في مجال علوم العمران والبنيان.

ثالثا: من أوجه الإعجاز فيما ورد ذكره عن حضارة فرعون موسى:

لايستطيع أحد أن ينكر مدى التقدم الحضارى والمعمارى الذى اتصف به الفراعنة في دولة مصر القديمة، ولايزال الكثير من آثارها المعمارية باق وشاهد على ذلك ويتمثل ذلك في المعابد والأهرامات والمسلات وغيرها.

كما لم تقتصر هذه الحضارة على إقامة المباني الضخمة والمتقنة الإنشاء، بل من الله عليهم بالأنهار والجنات الأرضية أيضا، ويتضح لنا ذلك من قول فرعون مفتخرا على قومه ورعيته: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُورِ الْإِنسَ إِلَىٰ مَلَكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِي ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(١)، وفي معنى هذه الآية يقول الإمام القرطبي^(٢): "أى نادى فرعون رؤساء القبط وعظماءهم لما رأى الآيات الباهرة من موسى وخاف أن يؤمنوا، فقال مفتخرا متبجحا: أليست بلاد مصر الواسعة الشاسعة ملكا لي؟ وهذه والخلجان والأنهار المتفرعة من نهر النيل تجرى من تحت قصوري؟، ومعظمها أربعة: نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس، ولكنها من النيل، وقال قتادة: كانت جنانا وأنهارا تجرى من تحت قصوره".

ومن الملاحظ أنه رغم ماهو معروف عن آثار الحضارة الفرعونية المبهرة وماحوته من مباني ومعابد ضخمة ومتنوعة فان القرآن الكريم لم يذكر صراحة عن هذه الآثار أى شيء، فيما عدا ذكره لواحد من هذه المباني وهو لم يعرف أو يتم

(١) سورة الزخرف: الآية ٥١.

(٢) أنظر تفسير الآية ٥١ من سورة الزخرف في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

اكتشافه حتى عصرنا الحالى، ونقصد هنا الصرح الذى جاء ذكره مرتين فى سورة غافر وسورة القصص.

فى سورة غافر يخبرنا القرآن عن هذا الصرح على لسان فرعون بقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ بِلَ صَرَحاَ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿١﴾﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأُظَنُّهُ كَذِبًا ﴿٢﴾﴾، ثم يتضح لنا من سورة القصص أن مادة بناء هذا الصرح هى الطين المحروق وذلك من قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّى صَرَحاَ لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأُظَنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾، هذا هو كل ما ورد فى القرآن الكريم فى وصف هذا الصرح من أنه بناء عال من الطين المحروق والغرض منه هو أن يبلغ فرعون أسباب السماوات فيطلع إلى اله موسى على حد زعمه.

*** من أوجه الإعجاز فيما ورد عن حضارة فرعون موسى:**

تشير الآية (٣٨) من سورة القصص إلى عدة ملامح اعجازية منها:

١ - تاليه فرعون نفسه :

فى قوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾، فالأبحاث الأثرية التى قامت حول الحضارة المصرية القديمة تؤكد أن الفراعنة منذ الأسرة الرابعة كانوا يصرحون بنوتهم للإله رع الذى يمثل إله الشمس والذى كان يعبدها قدماء المصريين، بل إن اسم رع دخل فى ألقاب الفراعنة، مثل (رع نب) أى الرب الذهبى ولعل أوضح دليل على تاليه الفراعنة لأنفسهم كما يقول (بريستد) عالم الآثار، والتى حفظتها نصوص الأهرام هى أنشودة للشمس تردد فيها هوية الملك بإله الشمس، إن هذه الأنشودة تخاطب مصر، فى تعداد طويل ورائع للمنافع التى تستمتع بها تحت حماية

(١) سورة غافر: الآيتان ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة القصص: الآية ٣٨.

وسيادة إله الشمس، فعلى ذلك يُمنح فرعون مصر المنافع نفسها، ولهذا يجب أن يتسلم نفس الهبات من مصر، ولذا الأنشودة بأكملها تعاد بوضع اسم فرعون أينما يجيء اسم رع أو حورس في الأنشودة الأصلية^(١).

٢ - الإعجاز الثاني هو استعمال الفراعنة الأجر في بناء الصروح :

فقد طلب فرعون من هامان أن يبنى له من الطين المحروق (الآجر) صرحاً، وهذا يعتبر من الإعجاز التاريخي للقرآن الكريم فقد ظل الاعتقاد السائد عند المؤرخين أن الآجر لم يظهر في مصر القديمة قبل العصر الروماني، شكل (٩)، وذلك حسب رأى المؤرخين، والذي يرى في ذلك إشكالاً في أن الآيات السابقة التي تبين طلب فرعون من هامان أن يبنى له صرحاً من الآجر أو الطين المحروق وظل هذا هو رأى المؤرخين إلى أن عثر عالم الآثار "بترى" على كمية من الآجر المحروق بنيت به قبور وأقيمت به بعضاً من أسس المنشآت، ترجع إلى عصور الفراعنة رعمسيس الثاني ومرنبتاح وسيتى الثاني من الأسرة التاسعة عشر (١٣٠٨ - ١١٨٤ ق. م) وكان عثوره عليها في موقع أثري غير بعيد من (بى رعمسيس أو قنطير) عاصمة هؤلاء الفراعنة في شرق الدلتا^(٢).

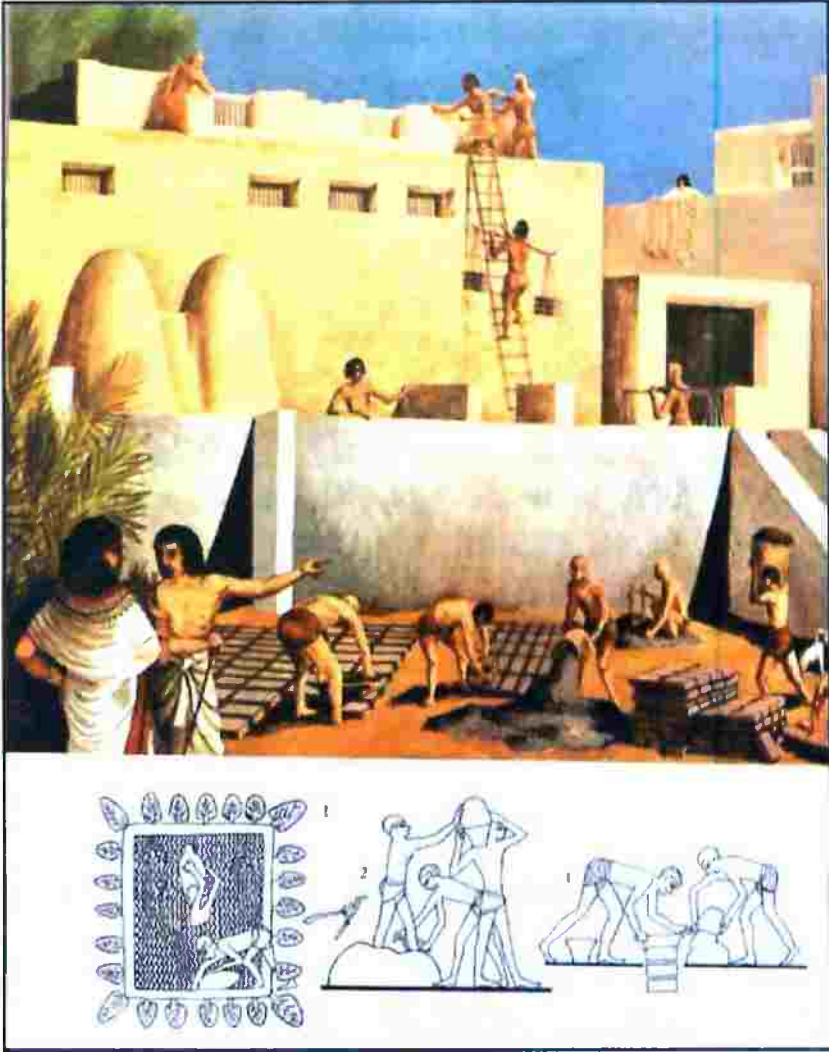
٢ - أما الإعجاز الثالث هو الإشارة إلى أحد أعوان فرعون باسم هامان :

فالملاحظ أنه تم ذكر اسم "هامان" ست مرات في القرآن الكريم، في أربعة آيات في سور متعددة (في سورة القصص الآيات (٦، ٨)، وسورة العنكبوت الآية (٣٩)، وسورة غافر الآية (٢٤)، وجاء ذكر اسمه مرتان في سياق الآيتين اللتين تتحدثان عن أمر فرعون له ببناء الصرح، في حين أن فرعون لم يرد ذكر اسمه ولا مرة واحدة، وهو شيء لافت للنظر، وهذا هو مكنم الإعجاز القرآنى.

(١) موقع (موسوعة الاعجاز العلمى فى القرآن والسنة) على الانترنت بعنوان :

WWW. 55 A . net

(٢) المرجع نفسه.



شكل (٩)

رسم يوضح استخدام الفراعنة للطين في بناء المباني، ولكن القرآن الكريم أوضح أيضا استخدامهم للطين المحروق (الاجر) وهو ما يعتبر سبقا واعجازا قرانيا في مجال تاريخ العمارة^(١).

(1) Helen & Richard Leacroft (1977). The buildings of Ancient Egypt. Hodder & Stoughton, London, pp. 28.

وفي ذلك نستدل بما جاء في بحث حديث للدكتور باسم طارق جمال عن هذا الملمح الاعجازي للقرآن الكريم حيث يقول^(١): "ورد اسم هامان مرة واحدة فقط في أحد كتب العهد القديم، ويتحدث هذا الكتاب عن شخص اسمه هامان كان مساعداً لملك بابل وعلى أنه أوقع الكثير من الضرر واشتد في قسوته على الإسرائيليين، ولكن هذه القصة تحكى عن شخص ظهر بعد سيدنا موسى -عليه السلام- بحوالى ١١٠٠ سنة، ويدعى بعض غير المسلمين أن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هو الذى كتب القرآن وأنه نسخ قصص الأمم السابقة من التوراة والإنجيل، وأنه أخطأ فى نقل بعض الروايات إلى القرآن الكريم، وأن هذا هو سبب وجود بعض الاختلافات بين القرآن والكتب الأخرى... وأنه أخطأ فى النقل فأشار إلى هامان على أنه وزير فرعون بينما على حسب ما يدعون هذا الاسم أطلق على شخص واحد فقط وهو مساعد ملك بابل، حاشاه -عليه الصلاة والسلام- مما يدعون".

ثم يوضح الدكتور باسم طارق جمال فى بحثه القيم أن ظهور بطلان هذه الادعاءات بعد أن حلت رموز وحروف الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة منذ حوالى مائتى سنة مضت، وأصبح من الممكن فهم الكتابات والنقوش الفرعونية، فمن خلال ترجمة الكتابات والنقوش الهيروغليفية تم التعرف على معلومة مهمة جداً، وهى أن اسم هامان ورد فعلاً فى الكتابات المصرية القديمة، وتوجد إشارة إلى هذا الاسم فى نصب فى متحف "هوف" فى فيينا، كما ظهر فى كتاب بعنوان People in the new Kingdom الذى تم إعداده استناداً إلى مجموعة من النقوش أن هامان كان "رئيس عمال الحجارة".

(١) باسم طارق جمال (٢٠٠٣). لفظة قرآنية فى علم الآثار. مجلة الإعجاز العلمى، عدد(١٤)، الهينة العالمية للإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، جدة، ص ٣٢، ٣٣.

إذا عكس ما يدعيه غير المؤمنين بالقرآن الكريم من أنه ليس بوحي قد أوحى إلى خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام، فإن فك طلاسم حجر رشيد أظهرت أن هامان هو شخصية حقيقية عاشت في مصر في زمن سيدنا موسى وأنه كان مقرباً من فرعون مصر، وكان مسئولاً عن عمليات الإنشاء والبناء، وهذا ما يفسر أن فرعون كان يوجه له الأوامر ببناء الصرح من الطين المحروق، وهذا لا يمنع أن يكون فرعون قد قرب هامان إليه وجعله وزيراً له ومستشاراً له في أمور أعمال البناء والإنشاء في مملكته، خاصة وأن قدماء المصريين قد عرف عنهم شغفهم وحبهم لإنشاء المباني الدينية والدنيوية أيضاً.

وعلى هذا فإن ورود اسم هامان ست مرات في القرآن الكريم ووجوده في الكتابات المصرية القديمة لا يرد فقط على الادعاءات الباطلة من المعادين للقرآن الكريم، ولكنه يؤكد حقيقة أن القرآن وحي من الله سبحانه وتعالى، وأنه كتاب معجز في مجال المعلومات التاريخية وفي مجال تاريخ العمارة تحديداً وهو موضوع الآيات الكريمة التي تناولناها، لأن هذه الأحداث لم تكن معروفة في وقت بعثة النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم.